النقد والتقييم

في الصحف والمجلات

قلّ أن نجد ، في الوقت الحاضر ، ناقداً أو مستقباً في الصحف والمجلات ، سليم الحكم ، متزن العقل ، سمح النفس ، عاملاً على خدمة الأدب والفن ، وانصاف الأدباء والفنانين .

وأغلب النقاد والعارضين للكتب ، يصدرون عن آراء ذاتية ، ... جاهلة ... وأهوائهم ونزواتهم ، ويجرون وراء شهرة كاذبة عابرة .

ويرجع هذا الى إيحاءات هذا العصر القلق المضطرب المذبذب ، وما ... من مجافاة للتعمق ، وميل للمادة وحب للترسل والتملق .

ولهذا فقد أغلب النقد الحاضر في ... قيمته وأصبح وبالاً ونقمة على ... ، وضلالاً لكثير من القراء الذين يؤمنون بصوفية الحرف المطبوع .

وكم يؤثر في نفوسنا أن نجد برزخاً عميقاً فاصلاً بين نقد اليوم ... الأمس القريب ، الذي لم يمض عليه أكثر من خمسة عشر ... يزيد ، فقد كان ... ، نقداً ... ، فنياً ، عاملاً على تنمية الانتاج الأدبي والفني .

وإذ نكتب هذه الكلمة ، تطالعنا ... طائفة ... نقاد الأمس المتازين ، وما خلفوا من تراث نقدي مقدور ، ... أيضاً ، نقدات الدكتور أبو شادي الجزلة الناضجة ، ودفقات الدكتور ناجي الحماسية ، وبحوث الأستاذ أحمد الشايب الرزينة المتأنية ، وكتابات ابراهيم المصري الحصيفة ، ونفثات البشبيشي الرصينة ، ولفتات الدكتور بشر فارس ، وفكرات الدكتور رمزي مفتاح الصريحة ، وتعقيبات الصيرفي المدققة ... ، وخطرات صالح جودت الذكية ، ونفحات محمود حسن اسماعيل ، ... الوكيل ، وغير هؤلاء من المتازين الذين كانوا يمارسون الأدب ... والذين تجردت نقداتهم من المهاترة والتهجم على الأشخاص ، واتسمت في الغالب بالمنة والكياسة ، والتعفف بالخلق والأعجاب .

ومن قبل هؤلاء ، سعدت البيئة الأدبية بنقاد فحول أخيار أمثال ... الأستاذ خليل مطران ، والدكتور هيكل والدكتور طه ، وكذا المازني والعقاد عند تجردهما من الانفعالات والغايات .

ومع هـذا ، فلم تخلُ بيئة الأمس البعيد أو القريب ، من نقّاد متحاملين ، ونقّاد ذاتيين مسرفين في عاطفيتهم ، ونقّاد منحرفين تخلوا عن النصفة الفنية ، وقدحوا في كرامات الأدباء ، وحاولوا الوضع من انتاجهم .

وهذا النفر الأخير من النقّاد لم يؤثروا ذرّة في إنتاج الأمس ، وان تركوا في نفوس الأدباء غصة غير خفية وقد باءت لحسن الحظ نقداتهم المنحرفة ، كما يبيد الزبدُ في مهب الرياح

وظفرت البيئة الأدبية الماضية ، بتراث نقدي مشرف ، وشهدت عهداً تعاونياً مثمراً ، واستقبلت نقّاداً ممتازين ، عاونوا الانتاج الأدبي معاونة ايجابية ، وأنصفوا المؤلفين ، وقدّروا كرامة الأدباء الموهوبين .

وقد كنا نرتقب ، في الوقت الحاضر ، نقّاداً أكثر امتيازاً وأكثر وعياً للنقد السليم ، ولكن خاب الرجاء ، وضاع الأمل المرتقب ، وعدنا الى النقدات العاطفية المصطنعة ، والتعقيبات ... ية الثرثارة ، والطعنات الجارحة الآثمة ، وفتحت العيون في ذهول تشهد ناقداً يتهجم على مواهب المفكرين ، ويقدح في أشخاصهم ، وناقداً يتعالم على التحويل ، ويحمل لهم عصا الأستاذية ، وناقداً يلف نقده في وشاح ... ويصور العمل الأدبي في صورة شوهاء ، وآخر يجمع الهنات من التآليف أو ... لات قاصداً الى الازراء على الأدباء والسخر منهم ، والى جانب هؤلاء ، نفر آخر ... الفنية ، والا القوة الفكرية للنقد ، ولكنه ارتقى المنصة ، وأصدر على الموه... من شعراء العصر الحديث ، أحكاماً كلية مرجاه .

ومع هـذا ، ولحسن الحظ ، فإن البيئة الأدبيـة الحاضـرة لم تعدم بعض النوادر من النقّاد الممتازين من أمثال الدكتور محمد مندور ، الاستاذ أحمد الشايب ومحمد خلف الله ، وسيد قطب أحياناً ، تفاوتت قوة ملكتهم النقدية وقامت ... على ذوق أدبي سليم أو على بعض أصول فنية لم تصل درجة التكامل .

ولم نظفر بعد بالناقد المثالي ذي الوعي التكاملي ، و... الراقي ... ، ذلك المرتقب الذي يحس بالحياة إحساساً كاملاً ، ويفهم الطبيعة ... ، ويدرك خير ما أخرج من التآليف قديماً وحديثاً ، ويبذل جهده ، ويجهد نفسه ، ليصل الى جوهر الكتاب المراد نقده ، فيكشف عما فيه من حسنات ، ويلم إلماماً هيناً بالعيوب ، ويقابل بين الكتاب المنقود وباقي ما أخرج الكاتب ، وبهذا النقد يبرز ... في العمل الأدبي وهذا هو النقد المثالي الايجابي الذي عناه الناقد الشهير مستلترن موري في كتابه « مناحي الأدب » Aspects of Literature بقوله :

« الناقد الحق هو الذي يبرز الفن الحقيقي في العمل الأدبي ، ويبرز أجمل ما فيه ، ففي الشعر مثلاً يأتي الناقد من أنواع الشعر بأجمله . وهذا هو الجهد النقدي المنشود » وهذا النقد الإيجابي المنتج له أثره البالغ في القلوب والعقول على السواء .

حقاً ، أننا في حاجة ملحة الى الناقد النبيل المتخصص في فنون الأدب ، الى ناقد يعتمد الأسس الحديثة في نقد الشعر ، ويبرز روائعه ، وناقد يتعمق قراءة القصص القصيرة ، ويكشف عن بدائعها الفنية ، وناقد يحلل الروايات نثرية كانت أو مسرحية ، وناقد يهب نفسه لأدب السينما وفنها ، فمثل هذا التخصص يؤدي حتماً الى ترقية الانتاج الأدبي والفني ورفع مستواهما .

وقد يسأل متسائل عن السبب في عدم وجود هذا الناقد المنشود ؟ واعتقادنا أن هذا راجع الى أن ناقد اليوم يكتفي بثقافة محدودة ، ولا يعمل على تنمية شخصيته وانضاجها ، وفضلاً عن ذلك ، فان التعليم في مدارسنا وكلياتنا ، وبخاصة في نواحي النقد ، لم يصل الى الدرجة المرتجاة ، ففن الشعر ونقده لا يلقيان دراسة فنية عميقة ، وفن القصة ونقدها لا يحتلان المكانة اللائقة بهما ، وكذلك الشأن في الفن المسرحي .

ويضاف الى هذه العوامل ، عامل آخر ، خفي ، ولكن أثره خطير ، هو أثر روح العصر ، ذلك الروح الفردي ، المجرد من حب التعاون ، المتسم بالتوزع والقلق ، والذبذبة والميل الى المادة ، وهذا الروح قد طبع كثيراً من نفثات الأقلام بطابعه .

وليس شك ، أن هذا العامل يمكن التغلب عليه ، بروح الناقد الفنان ، تلك الروح التي تستطيع التسامي على أية بيئة عكرة ، إذا تحصنت بالمعرفة الواسعة ، والكياسة والتواضع والاتزان . وكم يؤلمنا أن نجد نقدات ذكية تضيع ولا تأتي بأية ثمرة بالنظر لحدة أسلوبها وتجردها من الكياسة ، أو بالنظر لقلة الحقائق فيها ، أو عدم تجاوب كاتبها مع العمل المنقود تجاوباً بريئاً .

وقد ألمعنا في مقال سابق عن أثر التحامل والحدة في نقد أحد أدبائنا الشبان ، لمفكر مصري جريء ، وما جلبت هاتان النزعتان من استياء صفوة المفكرين ونفورهم .

وها نحن أولاء ، نلقي ضوءاً على نقد كاتب شاب آخر لكتاب البلاغة العصرية واللغة العربية للاستاذ سلامة موسى ، انعدم فيه التجاوب ، وضاعت الأمانة الواجبة على الناقد في تبيان حقائق هذا الكتاب ، مع اقتران هذا النقد المنحرف بتطرفات شائنة .

وغايتنا من وراء هذا إعلاء مكانة النقد وتنقيته من الشوائب وجعله أداة منتجة عاملة الى جانب الانتاج الأدبي .

وكتاب « البلاغة العصرية » الذي نحن بصدده ، هو صرخة ذكية من صرخات الأستاذ سلامة في هذه البيئة المتحجرة ، لجعل اللغة العربية كما هو الحال في كل لغة ، وسيلة تأدية المعاني والآراء ، لا غاية من الغايات ، ودعوة نبيلة الى توسيع آفاق هذه اللغة ، وجعلها أداة طيعة لنقل آثار الحضارة الراهنة .

فلقد هال هذا المفكر المتحضر ، أن تضحى الأفكار من أجل العبارات المزوّقة المنمقة المزركشة ، وأن توأد الاصالة الفكرية بالكلمات المطلقة المبهمة غير المحددة ، وهاله أن نتخلف عن ركب الحضارة بتركنا المعارف الحديثة ، واقتصارنا على بلاغة البيان والزخارف البديعية تحطم بها رؤوس الناشئة .

ولقد قضى التواضع على مؤلف الكتاب أن يذكر في مقدمته أنه يطرح آراءه للمناقشة ؛ وأغلب هذه الآراء تؤيدها صفوة المفكرين والمثقفين ثقافة عالية ، كما سنعرض فيما بعد .

فكيف نوقش هذا الكتاب ؟ وماذا كان نصيب مؤلفه من أحمد كتاب الشباب في مجلة الرسالة القراء ؟ وما هي تعليقاته ؟

لقد زعم الكاتب الشاب في كلمته ، أن الأستاذ سلامة موسى يهجم على اللغة العربية ! ويعيب نحوها ويدعو الى اللغة العامية ! وان آراءه في هذا الكتاب ككل الآراء التي في كتبه ، وان رجلاً هكذا اتجاهه لا يجوز أن يحتل مقعداً مع الخالدين في المجمع اللغوي ، بل أنه يصنع لرياسة مجمع يطلق عليه « المجمع العامي » ويسمى باسمه !

ولا رد لنا على هذه الأقوال ، ولكننا ندع الكتاب يرد عليها ، ويكشف مبلغ افترائها على الرجل وعلى الحقيقة .

والنقاط الجوهرية في الكتاب تدور حول « ملكية العبارة » كما يقول البيانيون المحدثون ، وحول تبعية اللغة للتفكير ، وحول أثر اللغة وألفاظها في النواحي السيكولوجية والخلقية والفكرية ، وحول الاعتماد في الكتابة على العقل والمنطق دون العاطفة والانفعال ، وحول توسيع آفاق اللغة بثقافة العلوم والمعارف الحديثة ، وبايجاد كلمات جديدة تتساوق مع العصر الجديد .

فأما عن ملكية العبارة ، أي الدقة في استعمال الألفاظ ، وتوافقها مع المعاني والأفكار ، فقد أفاض في هذا البحث حديثاً في غير مكان . وأنه ليقول في ص ٩ :

« اللغة المثلى هي التي لا تلتبس كلماتها ولا تتسامح معانيها ، ولا تتشابه من بعد أو قرب » ويقول في ص ١٨ و ١٩ : « إن الرقي في اللغة يعني الدقة وأن اللغة الحسنة تترك المترادفات لأنها ثرثرة مبيانية يضيع بها الوقت » . و « الكاتب الذكي يتجنب المترادفات من التوحيد

الى التنويع . أي يفرق بين الألفاظ المتقاربة المعنى مثل التفريق بين لفظة روح ونفس مثلاً أو بين كلمة الحكومة والدولة . وغير هذه من الألفاظ .

ويقول في ص ٩٣ مؤكداً ما أسلفناه قريباً — « يجب أن تكون الرسالة التعليمية لأية مدرسة مصرية ، هي تعليم اللغة العربية ، وأن تكون غاية هذا التعليم ، إيجاد الكلمات التي تحرك ذهننا بالتفكير الحسن ، وأن يكون هدف المعلم ، ليس العبارة الجميلة ، بل الكلمة الناجعة التي لا يمكن أن تقوم مقامها كلمة أخرى »

ويقول في ص ١٤٥ وهو ما يفسد ادعاه الكاتب في مجلة الرسالة ويدحض أقواله :
« يجب أن نكبّر من شأن لغتنا ، وأن نوليها أعظم اهتمامنا ، لأنها وسيلة التفكير ، ولا يكون التفكير الحسن بلا لغة حسنة » .

فهذه الأمور وأمثالها كثيرة زخر بها كتاب « البلاغة العصرية » وهي آية ناطقة على أن المؤلف لم يهجم على العربية ، ولكنه يبغي الإكبار من شأنها وينادي بالاهتمام الفائق بالتعبير الدقيق المحدد المتعمد ، وهذه الفكرة ليست بدعاً وإنما هي ما يقول بها البيانيون ، وينشدها الأدباء الفنانون .

فلقد كان الكاتب الفرنسي الشهير — فلوبير — لا تغفو عيناه طوال ليله وهو في كرب ، ليصل الى اللفظة الحقة mot juste كما كان يسميها ، وكذلك كان الكاتب الانجليزي الشهير استيفنسن يكابد مثل هذه التجربة .

وما لنا نذهب بعيداً مستشهدين بالغربيين وأمامنا كتاب « الأصول الفنية للأدب » للأستاذ عبد الحميد حسن ، وكيل دار العلوم يؤيد هذه الفكرة في ص ١٨٨ حيث يقول :
« إن فقدان التوازن بين اللفظ والمعنى وعدم توافقهما ، نشأ عنه إسراف في سرد ألفاظ تعد من لغو القول ، أو نافلته ، فيصبح المعنى حائراً ، وقد تضيع معالمه وسط هذا الزحام اللفظي » .

وينتقل مؤلف « البلاغة العصرية » الى فكرة لا تقل خطراً عن الفكرة السالفة وهي جعل اللغة وسيلة التفكير والاهتمام بالتفكير ، قبل الاهتمام بالعبارات الجميلة المزوقة ، وفي ذلك يقول في ص ٦١ :
« يجب أن يعرف الشاب كيف يفكر ويبحث ويطلع ويجب مقاطعة الاقتباس في الانشاء في المدارس الابتدائية » ويكرر تأييد هذه الفكرة في ص ١٠٥ — إذ يقول :
« إننا في حاجة الى أن نجعل البلاغة فناً للتفكير الحسن السديد » .

وهذه الفكرة بالغة الأهمية لأن في نطاقها تتقدم العقلية الشرقية ، وتلوذ الى الابتكار

والاصالة . وقد أثبت ذلك طائفة من رجال التربية وعلم النفس ، فيقول ر . ريل W. Reil في كتابه « فن التفكير العملي » :

«إن أعظم غاية للتعليم ، هو أن تعلّم الناس كيف يفكرون ، وهذا النوع من التعليم من أصعب الأمور » [1] وعلى مثل هذا الرأي جرى الاستاذ ميس Mace في كتابه « سيكولوجية الدراسة » Psychology of Study — فقال : إن الذي يُعلّم ، هو معرفة كيف تفكر » .

ويفيض المؤلف حديثاً ، إلى ما تقدم ، في أثر الألفاظ من الناحية السيكولوجية ، والاجتماعية والخلقية ، وهذا بحث علمي طريف ، غير مسبوق في لغتنا العربية ، ومما جاء في هذا البحث ، أن الكلمات تؤثر في نفوسنا ، وتجعلنا نسلك سلوكاً معيناً بما تغرسه في أذهاننا من القيم ، وان هذه الكلمات تبعث في أنفسنا انفعالات خاصة ، أو تحدث مقاييس ذهنية نعيش بها ونسلك في حياتنا على مقتضاها ص ٣٨ من الكتاب .

وفضلاً عن ذلك فان الكلمات تكسبنا كما يقول المؤلف اتجاهاً خلقيًّا ، بل تكسبنا اتجاهاً مزاجيًّا ، فان كثيراً مما نشمئز منه ، أو نطرب له ، أو ننشط إليه يعود الى الكلمات التي تعلمناها ، وانغرست في عواطفنا ص ٤٠ . وذكر مثالاً لهذه الحقيقة الاخيرة . كلمة « بجعة » فإنها اسم شنيع لطائر يعد تحفة في الطيور ، ولذلك لا يستطيع شاعر عربي أن يستغل الطاقة الفنية في وصف هذا الطائر لشناعة إسمه ، مع أن إسمه اللطيف في الانجليزية والفرنسية ، جعل كثيراً من الشعراء الانجليز والفرنسيين يذكرونه في أشعارهم .

وقد فصّل هذه الفكرة في كثير من صفحات الكتاب فقال في ص ٨٧ :

« ان لكل كلمة ايحاءها الذي يندس في العقل الباطن ، ويكوّن لنا عادات في التفكير والأخلاق ، ويجب لهذا السبب أن نحيط أبناءنا بالكلمات المثلى التي تبعث على التفكير الحسن » .

وفي ص ٩٧ ، أبان أثر الكلمات في الأخلاق ، فقال ، بأن هناك كلمات تبني الأخلاق ، فكلمة المروءة ، أو الفتوة ، أو البر ، كلمات تبني الأخلاق ، وأنها من التحف الغالية . ولو كانت الأمة العربية تكسب في كل مائة سنة كلمة جديدة ، لها هذه القوة في الخير ، لصار المجتمع العربي أسمى المجتمعات في التفكير العاطفي » .

ولم يقف مؤلف كتاب « البلاغة العصرية » عند هذه الفكرات بل ارتأى أن يكون المنطق أساس البلاغة الجديدة ، وأن تكون مخاطبة العقل غاية المنشيء بدلاً من مخاطبة

---

(1) The Art of Practical Thinking, by Reil.

العواطف ، وذلك لأن البلاغة في لغتنا العربية تخاطب العواطف دون العقل ، وهذا ضرر عظيم ص ٥٦

وهذه فكرة يمكن أن تقبل من كاتب اجتماعي أو رجل مشتغل بالعلوم ، همه الوحيد مسايرة العقل ، ومصاحبة الحقائق ، وقد يكون الدافع الى فكرته هو ازدحام البيئة الأدبية بالأدب العاطفي المصطنع أو الأدب العاطفي المسرف في عاطفيته ، ومثل هذا الأدب ممجوج ، ولا قيمة له ، ولكن لا نكران في أن هناك فنوناً من الأدب يعتمد العاطفة والانفعال ، كالشعر الغنائي والوجداني ، والقصص الرومانتيكية ، والأغنية ، وغيرها ، ومثل هذه النواحي تتخذ العاطفة أساساً لها ، وتستوحي العقل الباطن ، ويرى النافدون المحدثون ، وفلاسفة الجمال ، أن هذا الأدب هو الأدب ، الفني ، ويمكن استفتاء « هربرت ريد » وغيره من النقاد المحدثين في هذه الناحية ، التي تتطلب بحثاً منزلاً

* * *

والذي يتعمق كتاب « البلاغة العصرية » يحس احساساً كاملاً ، بأن مؤلفه ، قد تملكته فكرة ثابتة نبيلة ، هي أنه لا تقدم لبيئة المصرية ، إلا بالنواة الى المتنز ، وتزويد الناس بأنواع الثقافات المتنوعة ، والعلوم الحديثة ، لتسير البلاد في ركب الحضارة . ولهذا نراه يحمل حملة شعواء على الكتاب الذين يتركون آثار الحضارة الراهنة ، ويعيشون على تراث الموتى ، فيترجمون كما يقول : رجال الماضي ، ويتركون رجال الحاضر ويولون اهتمامهم أدب القدامى ، وينأون عن التأليف في مشكلاتنا العصرية ص ١١ ويكتفون باجترار عواطف القدامى الفردية ، دون اهتمام بالفكرات والعواطف الاجتماعية والأدب الشعبي .

وقد زخر الكتاب بشواهد وفيرة لتأييد هذه الفكرة ، فيقول : « إن لغتنا خرساء في نحو مائة علم وفن ، ولهذا السبب نحن جهلاء في هذه العلوم والفنون — ويقول في ص ١٢٠ — « الكلاسية في مصر ، ليست لغوية أدبية فقط ، بل هي اجتماعية تراجية ذهنية ، فدعاتها مثلاً يهتمون كثيراً جداً في التأليف عن الخوارج في أيام علي بن أبي طالب ، ويهملون التأليف عن الخوارج على الديمقراطية .

ويتجلى من هذا ، أن مؤلف كتاب « البلاغة العصرية » يدعو الى أدب حي ، أدب عصري يتصل بالحياة ، أو ينبع منها ، ويريد أدباء لهم آثار في الحياة الاجتماعية ، أدباء يثيرون ضمائر معاصريهم من أمثال ديكنز وشيكوف وأبسن وه . ج . ولز وبرنارد شو ومن إليهم .

ومن وسائل تجديد الأدب ، تجديد اللغة وجعلها عصرية ، وذلك بتبسيطها (ص ٨٣)

وترك الكلمات الغريبة ذات الايحاء السيء ، واختيار الكلمات التي تمتاز بالإيحاءات الموقظة المنعشة أو كما يقول في ص ١٠٠ – كلمات يحس الفرد نشوتها ، بل يتأثر بكيميائها ، وفضلاً عن ذلك ابتكار كلمات جديدة تساير تطور المجتمع المتحضر ، وتطعيم تعبيراتنا بمعاني العلم ، ثم استعارة الكلمات العالمية أو الكوكبية كما يسميها ، مثل التليفون والراديو ، والتلسكوب ، والفلم ، والتلغراف وما إليها .

وهو في هذه الآراء يجاري سنة التطور في كل لغة من اللغات الحية ، فاللغة الانجليزية كما يقول W. Home لا تقل كلماتها عن ٤٠٠ ألف كلمة وهي تستمر في كل عام ، بل في كل يوم ، كلمات جديدة[1] وذلك لأن الحالة الاجتماعية والاقتصادية المتجددة ، تتطلب كلمات جديدة تعبر عن المخترعات والكشوف العلمية الحديثة .

* * *

هذه هي أهم الفكرات التي دار حولها كتاب « البلاغة العصرية » وهي فكرات تستأهل التمعن ، بل التمثل ، وهناك فكرات عارضة ذكرها المؤلف دون أي تعليق ، مثل فكرة في احياء الأدب الشعبي باصطناع اللغة العامية ، ص ٨٣ ولكنه لم يذكر شيئاً عن كيفية اصطناع هذه اللغة ؟ وفي أي فن من فنون الأدب ؟ والمفهوم أنه يقصد إلى لغة عربية سهلة عصرية . وهو محور كتابه ، وهو في هذا الكتاب ، وفي كتبه العدة التي ازدانت بها المكتبة العربية لم يستعمل كلمة عامية واحدة ، بل أنه يتوخى الكلمة المعبرة ، والعبارة العربية الصحيحة ، وأسلوبه يبز كثيراً من أساليب كبار أدبائنا .

ومما تقدم من عرض مفصل لكتاب « البلاغة العصرية » يتضح أن ما جاء في أقوال كاتب مجلة الرسالة من أن الكتاب يدعو الى التهجم على اللغة العربية ، ويعيب أدبها ، ويدعو الى العامية ، لا يقوم على أي أساس من الصدق والحق ، ونخشى أن نقول إنه تشويه متعمد ، قصد به التشهير وإذاعة الآراء الباطلة ، وهذا ما نشجبه كل الشجب ، ونرجو أن يربأ كتابنا الناشئون بأنفسهم عن الانزلاق في الحكم على كتاب أو أديب ، دون قراءة فاحصة ، وتجاوب مع الكاتب ، وتجرد عن الهوى .

هدانا الحق والتعاون سبيل النقد الحر النزيه .

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

---

(1) English Language & Literature (The New Educational Library)